الجامعة الاسلامية (*)

أرسل الينا أحد علماء اللغة العربية المقالة الآتية باللغة الفرنسوية في مسألة هي في الوقت الحاضر أكبر المسائل التي تهم أوربا بمقدار ما تهم المسلمين ، وهي مسألة الجامعة الاسلامية التي نجهل منها اكثر مما نعلم ، قال الكاتب :

ولدت الجامعة الاسلامية تحت شمس مصر الحارة وظلت زمانا طويلا محصورة في دائرة عدد صغير من أنصارها ، وكانت هذه الجامعة في نشأتها الاولى دينية محضة أشبه بكنيسة كاثوليكية ترمي الى ضم جميع الفرق الاسلامية أو بالحري الى تجديد ذكرى الوحدة القديمة التي فقدت منذ زمن بعيد ، الا انها لم يمض عليها زمن حتى وسعت دائرتها وأصبحت تعقد الرجاء بتكوين دولة اسلامية شديدة البأس كالدولة التي كانت في زمن الفراعنة لتظهر للعالم في بعض أجزائها انها المعيدة بصفة شبه قومية (؟) للتمدن الشرقي الذي توارى خلف مدنية أوربا المسيحية

ولما كانت الجامعة الاسلامية لم تزل حديثة النشأة لذلك كانت أعمالها صادرة عن حمية عمياء حمية الحداثة وعدم الاختبار التي تئن مصر والجزائر من تحتها الى أن دخلت في دور السكينة مشتغلة بنشر مبادئها ومنتظرة بلوغ قوتها .

والسيد جمال الدين الافغاني الحسيني هو أول من اشتغل بنشر فكرة الجامعة الاسلامية ان لم يكن المحرض على انشائها وقد ظل زمنا طويلا معروفا بأنه المثال الحي لتلك الجامعة .

ولد السيد جمال الدين في ولاية كابل في أسعد آباد من أعمال بلاد الافغان واشترك في ثورات عديدة أريقت فيها الدماء ، ثم فارق وطنه سائحا في العالم خصوصا في العالم الاسلامي فاخترق الهند الانكليزية الى فارس فبلاد العرب

(*) مترجمة عن جريدة (الطان) الفرنسية من العدد الذي صدر في ١٧ دسمبر ومن الكاتب من نصارى لبنان

فالسلطنة العثمانية ثم القطر المصري ومنه جاء الى أوربا فراقب كفيلسوف كل الحوادث العظمى التي شهدها القرن الماضي وراقب أدوار الرقي العقلي في أوربا بنظر من يود الوقوف على الحقائق، وانخرط في سلك الماسونية في مصر ثم ذهب الى الاستانة فتوفي فيها عام ١٨٩٧ وكان السلطان عبد الحميد قد جذبه اليها وغمره باحسانه وهداياه ، وفي جملة الذين حظي بصداقتهم ووداده اثناء سياحاته المسيو رينان حتى اختصه هذا بالمدح والتقريظ في أحد مؤلفاته .

وكان جمال الدين مهيب الطلعة ، ويقال انه مع مقدرته الفائقة في فن الخطابة كان واسع الاطلاع في الشؤون العامة حتى أنه خلف تلاميذ كما فعل أفلاطون ولم يخلف مؤلفات ، وكانت سيرته تاريخا في العالم الاسلامي الذي كان جمال الدين يسعى الى تألفه فكانت الجامعة الاسلامية أملا له يحلم به في كل أيام حياته ، وكان ينتقل في العالم الاسلامي من بلدة الى أخرى رسولا للوحدة والتضامن يمقظ الناس ويدعوهم للعودة الى التقاليد القديمة ولكن من غير تعصب فكانت غايته أن يكون الاسلام عاما طيبا ووسيلة للتسامح وهب المدنية والارتقاء ،

وكان في القطر المصري جمعية تدعى (جمعية العروة الوثقى) طلبت من من الافغاني أن يرفع مدة اقامته في باريس صوت الدعوة الى الجامعة الاسلامية فأصدر هناك جريدة (العروة الوثقى) وناط تحريرها بالشيخ محمد عبده الذي ذاع صيته في ذلك الوقت فظهر منها ثمانية عشر عددا فقط اذ أن الحكومة الانكليزية التي كان يهمها أكثر من غيرها أمر الجامعة الاسلامية الجديدة استعملت الضغط لايقاف حركة تلك الجامعة

ثم ظهرت فكرة عقد مؤتمر اسلامي عام فاتجه نظر الافغاني نحو مكة واستحسن العالم الاسلامي ذلك الا أن السلطان عبد الحميد قد راعه اتجاه الجامعة لاسلامية نحو بلاد العرب التي أقلقته ثوراتها الماضية فأخفقت فكرة عقد المؤتمر في مكة

**

أما الكواكبي فقد كان مع ذلاقة لسانه في الخطابة صاحب نظر دقيق

نير ، وقد أخذ فكرة الافغاني في عقد المؤتمر الاسلامي فشرحها شرحا مطولا في كتابه الذي صدر باسم (سجل جمعية أم القرى) وضمن هذا الكتاب أعمال المؤتمر الذي لم يمكن عقده ، ووصف بأسلوبه المحزن حالة العالم الاسلامي وشخص أمراضه بكل انتباه مع ذكر الدواء اللازم لها

الكواكبي هو العالم النظري الذي نفذ للجامعة الاسلامية وهو المفكر الذي لم يؤثر فيه الوعيد والتهديد ، وانما كان الافغاني قد أظهر الميل الى عبد الحميد بعجيته الى الاستانة حتى مات فيها فان الكواكبي ظل داعيا الدعوة الاولى لعبد الحميد حتى ألف كتابه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) تشنيعا على حكومته ،

***

اما عبد الحميد فانه بما اتصف به من الحكمة والدقة أدرك القصد من فكرة الجامعة الاسلامية فبعد أن كان أول خصم لها أراد أن يرعاها برعايته ليستأثر بفائدتها ولذلك جذب الافغاني وكثيرا من الاطباء وأئمة الاسلام الى الاستانة وأغراهم بالالتحاق به وأجزل الهبات والهدايا والعطايا والالقاب والوسامات وظهر هو نفسه بمظهر ديني وجعل نفسه نصير الاسلام في العالم ورتب المرتبات للمعاهد الدينية وللعلماء ومشايخ الطرق وللجوامع والمساجد وشيد أماكن خاصة بضيافة الحجاج وتسهيل واجباتهم الدينية كما أنشأ السكة الحديدية الحجازية التي لم يكن ينظر العالم الاسلامي اليها الا أنها عمل صادر عن شفقة على المسلمين وحنان عليهم ، فتبرع لها المسلمون ببالغ طائلة اعانة على إتمام هذا المشروع

ولم يقتصر الامر على جذب المسلمين والحصول على انعطافهم بل كان من اللازم أيضا تنويرهم وضم بعضهم الى بعض والقبض عليهم فأرسل خليفة الاستانة الى أنحاء العالم الاسلامي أولئك العلماء الذين التفوا حوله وجعلهم رسلا للجامعة الاسلامية التي كانت تحيط أحلامه

وفوق ذلك فانه أراد أن يراقب الدول الاجنبية التي كانت تضم بين رعاياها أو في مستعمراتها فريقا من المسلمين فبث في كل جهة حتى في الجزر

الصغيرة رسله السريين الذين لم يكن يشعر أحد بوجودهم ويمكن أيضا من الحصول على مخبرين سريين في الدوائر العليا لتلك البلاد وكان يقدم المبالغ الطائلة أجرة عن عملهم

ولما خلع السلطان عبد الحميد أصبح كل الذين يعيشون من هذا الطريق لا مورد لهم ، والحكومة الدستورية الجديدة لم تشأ أن تعترف بهم ، وقطع أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الصلة بينهم وبين الجامعة الاسلامية منذ قاطعوا شخص عبد الحميد وتظاهروا أيضا بمقاومة هذه الجامعة ونسخ اللغة العربية وهي لغة الدين المقدسة بل هي لغة المسلمين العامة التي بزوالها يزول الاسلام وبقائها يبقى ويحيا

ظل هؤلاء دائبين وراء أمانيهم الجميلة فابتكروا مشروع الاقدام على صبغ السلطنة العثمانية بالصبغة التركية ، وهذا المشروع لم يخطر في بال السلاطين الفاتحين ولا عالوا النفس بتحقيقه مع ما كان لديهم من القوة التي ان لم تكن أعظم من قوة أحدا ث سلانيك الغارقين في الأوهام فهي على الاقل تساويها ، وبهذا صارت الجامعة الاسلامية بلا سند وعادت حقا مشاعا فبدأ كتاب الصحف وحدهم يشتغلون بها وقوة هؤلاء لا يستخف بها

***

انتشرت الصحف الاسلامية في العالم بكيفية غير محسوسة واكثر هذه الصحف عربية فتجد منها باسيا وأفريقيا وأميركا وأوروبا بل في الاوقيانوسية ولو بنسبة غير متساوية ، ولما كانت هذه الصحف حديثة النشأة لذلك ترى لها عيوبا كما أن لها مزايا وفوائد ، فأذا كان ينقصها الاخبار السريعة من جهة فهي من جهة ثانية ذات سلطة على قرائها وهي التي تكون الرأي العام بل أن تردد صداه

تكثر الصحف العربية بنوع خاص في القطر المصري ، وكانت في سوريا قد نهضت بنشاط في مدة قصيرة حتى جاءها الحكم الحميدي ووقف في وجهها فجعلها نسيا منسيا الى أن أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ وكان الكتاب السوريون

ينزلون ضيوفا في مصر وهي الاخت الشقيقة لسوريا فانتشرت الصحافة في وادي النيل وفازت فوزا باهرا

صورة مصطفى باشا كامل تتقدم بما لها من المكانة صحف الجامعة الاسلامية في القطر المصري ، وهذه الجامعة الاسلامية هي الجامعة المدنية التخيلية القريبة الوصول لكل من بذل ذاته وأبدى سخاء وعلو همة الا ان هذه الجامعة مصرية أكثر منها عمومية وقومية أكثر منها دينية

أما الممثل الحي المقدام للجامعة الاسلامية الدينية فهو بلا نزاع الكواكبي والافغاني والشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، وكان مرمى آمال الشيخ محمد عبده ان يكون الاسلام عاما حيا يرجع الى حاله الاولى ويتجرد مما زيد فيه بمرور الزمان

ومما قاله رحمه الله في كتابه (الاسلام والنصرانية) ص١١٧ إن مايؤخذ على المسلمين في الوقت الحاضر ليس هو من الاسلام في شيء ولكنه شيء آخر أدخله أهل البدع على الاسلام ودليلنا على ذلك القرآن الذي انصرفوا عن تدبره واتباع سننه

ان الجامعة الاسلامية الدينية التي خلفها الشيخ محمد عبده لتلاميذه عند وفاته يتوسل للعمل لها بثلاث وسائل المؤتمرات والصحافة والتعليم بالمبادىء الصحيحة ، وقد كانت آمال الجامعة الاسلامية ترمي الى عقد مؤتمر يجمع جميع الطوائف الاسلامية وقد سبق لنا الكلام على السبب الذي من أجله لم يفلح مؤتمر أم القرى ، الا أن العزيمة لم تفتر في هذا الشأن حتى قام قبل بضع سنوات اسماعيل غصبرنسكي مدير جريدة ترجمان التي تطبع في بغجه سراي في القريم فاقترح عقد المؤتمر في القطر المصري وقابل المصريون هذا الاقتراح بحمية ونشروا على العالم الاسلامي منشورات حماسية الا أن هذا المؤتمر أخفق أيضا

وقد قرأت في أحد أعداد مجلة المنار التي تصدر في مصر وقد تفضل بارسالها الي المسيو ماسينيون اقتراحا لاحد المكاتبين يقترح به عقد المؤتمر الا انه لم يكن سبب اخفاق المشروع فساد في ادارته بل كانت هنالك صعوبات مادية تحف به من كل جانب

وأما الوسيلة الثانية وهي الصحافة فانها جعلت فكرة الجامعة الاسلامية تتقدم تقدما سريعا لان كل الجرائد الاسلامية في العالم ترمي الى هذا الغرض وهي منتشرة في كل مكان . واذا فتح الانسان واحدة من هذه الجرائد او المجلات يأخذه العجب من الخطوات التي اجتازتها الصحف العربية وان كانت أربا لاتكاد تحسب لوجودها حسابا

وتهتم الصحافة العربية باستعراض أحوال العالم الاسلامي بأسره ونشرها وتعلق عليها وتشير باصلاح المعوج منها وتشجعها وتحنو عليها حنو الوالدة على رضيعها وتفيض هذه الصحف بالبحث في تاريخ الاسلام وعلومه وتقاليده في قالب يسهل فهمه على جميع القراء لانه يكتب باسلوب بسيط حديث . وان مجلة كمجلة المقتبس تعد كنزة معارف حقيقية يهم المسلمين الاطلاع عليها وهي تقرأ في كل جهة من البلاد العربية كما تقرأ في الاوقيانوسية والهند وأميركا

وقد وقف أحد مسلمي الهند في لاهور مائة نسخة من كتاب تفسير القرآن الحكيم الذي يكتبه الشيخ رشيد رضا لتوزع هذه النسخ على المساجد وتتلى فيها

ولدينا أمثلة كثيرة من هذا القبيل تدل على وجود روح التضامن التي تبثها هذه الصحف بين المسلمين المنتشرين في أنحاء العالم

وأما الوسيلة الثالثة فهي التعليم الذي اشتد الميل اليه والشوق الى نشره فانتشرت المدارس في كل مكان . وكان الانسان يقرأ منذ حين على كل جدار في كل مدينة من مدن سوريا هذه الجملة : « تعلم ياقمي فالجهل عار »

والجامعة الاسلامية لاتكتفي بتأسيس المدارس البسيطة بل هبت لتأسيس المدارس الجامعة الكبرى . فهذا الجامع الازهر قد تأهب لتجديد عهد شبابه واستعد للقيام بالوسائل الحديثة . وهنالك مشروع تأسيس جامعة في الهند وأخرى في سوريا وقد تكلموا في هذه منذ مدة ولكن لم يتم شيء من ذلك بعد

ويرجع فضل حركة النهضة الاسلامية في الهند لاحمد خان الذي ولد في سنة ١٨٧١ وتوفي سنة ١٨٩٧ وهو المؤسس لجمعية الترجمة التي صارت بعد ذلك باسم جمعية عليكرة العلمية وهو الذي اهتم بأنشاء جامعة اسلامية ورغب الناس

فيها بواسطة جريدته وجمع هذه النهضة الدينية بعمله وكتاباته وخطاباته ، وقد أنشئت في كلكتا مؤتمرات للتربية الاسلامية حتى انتشرت هذه الحركة . وقد تحصل الراجا محمود اباد أخيرا على رضاء حكومة الهند بتأسيس مدرسة جامعة اسلامية كبرى في عليكرة وهو المشروع الذي كان يشتغل به منذ زمن

وأما مسلمو الاوقيانوسية فقد أسسوا الآن مدرسة اسلامية لتعليم اللغة العربية في صومطرة ، وفي جاوا تنشر الجرائد العربية

أما المشروع الذي يفوق المشروعات الاخرى ويدل على الجامعة الاسلامية قبل غيره فهو مشروع (الدعوة والارشاد) الذي قام به الشيخ رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده الذي سبق لنا الكلام عليه وكان قصده من هذا المشروع في بادىء الامر ان يكون في الاستانة الا أن حزب الاتحاد والترقي كان يظهر له القبول والترحاب الى أن انقلب عليه فعاد السيد رشيد رضا لارض مصر الكريمة فألف فيها جماعة الدعوة والارشاد ووضع مساعدتها أساس مدرسة كلية اسلامية كبرى مجانية وتبدأ المدرسة بسنة تمهيدية ، ثم يكون لها صنفان مدة كل واحد منهما ثلاث سنوات أحدهما صنف المرشدين الذي سيجيء بلاغة منبر الخطابة الاسلامية الراقد منذ أجيال والصنف الثاني لتعليم الدعاة الى الاسلام وهؤلاء ينتخبون من علية متخرجي صنف المرشدين فيتممون في السنوات الثلاث المعارف اللازمة لتأدية مثل هذه المهمة العظيمة

من هذا نعلم أن الجامعة الاسلامية تشعر أنها قادرة ليس على الدفاع عن نفسها فقط بل على الشروع بفتوحات جديدة .

قال محمد أحمد في مقدمته لكتاب الاسلام والنصرانية تأليف الشيخ محمد عبده أن هذه الديانة السمحة ستمحو كل دين آخر وتزيل كل طريقة وتبقى وحدها على الارض .

والواقع أن الدين الاسلامي ينتشر في أواسط أفريقيا ومن الممكن أن ينتشر أكثر . ويتضح من احصائية الحج الاخيرة أن قد ظهرت في الوجود حركة دينية شديدة . فان عدد الحجاج صار ١٧٥٠٠ بعد ان كان ٧٥٠٠ وعدد الحجاج الذين مروا بالقطر المصري ١٦٥٠٠ .

ان الجامعة الاسلامية تسير بصراحة وأنا أعرف جامعة أخرى لاصلة لها بالدين . وهذه الجامعة أهلية محضة والغرض منها احياء تلك المدنية الاسلامية الشرقية القديمة واظهار جمالها وريحها العاطر القديم . وذلك أمل تشترك فيه ضفاف الفرات الغنية المخصبة ودمشق الفيحاء القديمة وترقب من ورائه أن تتجدد عجائب مدائن الاندلس

وليس هذا الامل اسلاميا فقط بل ان الحمية التي يبديها الكتاب المسيحيون حديثو السن لا تقل عن حمية اخوانهم المسلمين قوة وشغفا . الا أن هذا الميل لايمكن اشتراكه بالجامعة الاسلامية الدينية بدون تكلف في الالفاظ وتوسيع للدائرة الى حد لايسعه مجال مقالة واحدة . ومع ذلك فاني أردت أن أشير الى هذا الميل الذي يهم البحث فيه كل من يهتم بشؤون هذا الشرق القديم الذي لم تزل شهرته قليلة

ك . ت . خير الله

(المنار) كتب هذا الكاتب اللبناني البليغ مقالته في الطان لتزداد فرنسا وسائر دول أوربة مقاومة لكل مايرتقي به المسلمون ولذلك كبر الصغير ، واستعان بالايهام والتهويل ، فجعل عبد الحميد مؤيدا لما يسمونه الجامعة الاسلامية وباثا لدعاتها ، وهو أشد خصومها وأكبر أعدائها ، وانما كان يصطنع بعض أصحاب الصحف في البلاد الاسلامية ليمدحوه ويدافعوا عنه بلقب الخلافة كما اصطنع أمثالهم في أوربة للدفاع عنه ومدحه ، وهو لم يحتل على جذب السيد جمال الدين الى الاستانة الا ليحبسه فيها ويبطل عمله ، ومن كلام السيد فيه « انه سل في رئة الدولة »

كذلك جعل المقتبس من الصحف الجامعة الاسلامية وأوهم أن قراءه في الاقطار الامريكية والاوقيانوسية من أركان الجامعة الاسلامية وانهم كثيرون يعدون بالالوف والصواب ان جلهم ان لم نقل كلهم من النصارى وهم قليلون . وقد صرح في الجزء الاول من المقتبس بانه علمي مجرد من النزعات الدينية وقد صدق فاذا كان مع هذا يعد من صحف الجامعة الاسلامية فالمقتطف والهلال منها كذلك !!

وفي المقالة مبالغات اخرى خرج بها الكاتب عن محيط الحقيقة فمثلها لا ورية من وراء زجاجة الالة المكبرة (الميكرسكوب) ولكنه اراد ان يجعل منها مسألة الحج فأخطأ في الارقام وجعل الكثير قليلا والكبير صغيرا .

جعل السيد جمال الدين هو الواضع الاول لاساس هذه الجامعة وقال انها اسست في مصر وانها كانت دينية محضة . والصواب ان السيد رحمه الله تعالى لم يدع في مصر الى جامعة دينية محضة بل اسس في مصر جامعة شرقية وحزبا وطنيا دخل فيه السوريون وغيرهم من سكان مصر الشرقيين

ومن أغلاطه ما ذكره عن جمعية الاتحاد والترقي من مقاومة الجامعة الاسلامية، وهذا الغلط مبني على الخطأ في دعوى ان السلطان عبد الحميد كان نصير الجامعة الاسلامية يبث الدعاة لها في اقطار العالم . والصواب ان الاتحاديين هم الذين حاولوا دون جميع اصحاب السلطة قبلهم ان يستفيدوا من تعلق قلوب المسلمين بالدولة فبثوا الدعاة لذلك في جميع أقطار العالم الاسلامي في الوقت الذي يبذلون فيه جهدهم باضعاف الدين ورجاله في المملكة نفسها ، فزعماؤهم المشهورون يقاومون نفوذ الدين ونشره من حيث هو دين ويحاولون الانتفاع به من حيث علاقته بالسياسة

ومن اغلاطه ذكر اسم مصطفى كامل في بحث الجامعة الاسلامية ووطنية مصطفى كامل والجامعة الاسلامية ضدان لا يجتمعان وانما كان يقدس عبد الحميد لاجل الانتفاع بذهبه ، واوسمته ورتبه ، وكذلك خليفته محمد فريد نصير زعماء الاتحاديين ومقاوم مشروع الدعوة والارشاد باغرائهم

وهنالك اغلاط اخرى لا حاجة الى تتبعها ومنها ما لا يترتب عليه شيء كقوله ان الكواكبي كان خطيبا مصقعا وهو لم يكن خطيبا ، وقوله انه كان في القطر المصري جمعية تدعى العروة الوثقى طلبت من الافغاني كذا وكذا والصواب ان الافغاني هو الذي ألف جمعية العروة الوثقى

وجملة القول ان الكاتب يعد كل عمل يعمله المسلمون سعيا الى الجامعة

الاسلامية فاذا قرأوا او كتبوا ، او اكلوا او شربوا ، يقول ان كل ذلك استمداد للجامعة الاسلامية . والمسلمون نائمون يغطون ، لم يستيقظ منهم الا نفر قليلون ، قد رأوا ملكهم ورزقهم يغتال ، وكل ما هو لهم مهدد بالزوال ، فهم يقولون لهم في بعض البقاع استيقظوا ، وانظروا كيف تعيشون مع من معكم ، ومن جاؤكم من فوقكم ، ولا أعرف أحدا يسعى الى اتحاد حكوماتهم ، على ان اوربة لم تدع لهم حكومات ، وانما بقي لهم هذه الدولة المنكوبة التي يخربها اصحاب النفوذ فيها من الداخل ، واوربة من الخارج ، كما قال المرحوم فؤاد باشا الشهير ، ونسأل الله وقايتها من هذه الارزاء ، فقد وصل الامر الى حد الدعاء ،

الصلح بين الدولة والامام

رسالة طويلة أرسلها الى جريدة الحقيقة البيروتية من اليمن ضابط عثماني شهد الحرب والصلح هنالك بنفسه ، لما فيها من الفوائد الجديرة بالتأريخ قال :

كان يوم السبت الواقع في ٨ ت ١ سنة ٣٢٧ يوما عظيما في اليمن حيث تجلت السعادة على تلك الربوع وانمحى الشقاء والبؤس اللذين كانا يرفرفان عليها واراني فخورا في زف هذه البشرى لاخواني في الدين والوطنية

ان قرية « دعان » الواقعة على مسافة خمس ساعات من الشمال الشرقي من قضاء « عمران » سيكون لها شأن في التاريخ حيث عقد فيها الاتفاق وتم توقيع شروط الصلح بين الامام يحيى بن حميد الدين وقائد الحملة عزت باشا فانحسم بذلك الخلاف وهدأت الخواطر وارتاحت النفوس ولسري ان الاتفاق خير وسيلة لحقن الدماء لان التطاحن لا يجدي نفعا بل يكون سببا لتأصل البغض وضعف القوة

وقد قام الامام بحضور القائد وار كان حربه ونواب اليمن والوف من سكانها داعيا للدولة بدوام العز حتى اعتقد الناظر ان رابطة الاتحاد والاخاء ستكون ابدية الى ما شاء الله لما ظهر على الوجوه من علائم الاخلاص وسيماء الاتحاد